



يبدو أن العرب لا يتعلمون من تجاربهم، ولا يتعظون من ماضيهم، أو كأنهم لا يقرأون تاريخهم، ولا يعرفون ماذا جرى مع آبائهم وأجدادهم، فلا يميزون بين صديقهم أو عدوهم، ولا يعرفون ناصحهم من المتآمر عليهم، ولا يفرقون بين من يمحضهم الصدق، وبين من يعتمد الكذب عليهم، ويثقون في كل من يتحدث معهم.

ويصدقون كل من يعدهم، في سرديّة من السفاهة والبله، وقلة الفهم ونقص الوعي، وكأن العرب لا عقل عندهم، ولا إدراك لديهم، يكررون تجاربهم بذات الغباء، وينالون ذات الجزاء، وكأنهم شياه يساقون كل صباح إلى المذبح، ولا يتعلمون من سبّقهم، ولا يذرون مما أصاب غيرهم.

ويكأن العرب لا يصدقون إلا عدوهم، ولا يحبون النصيحة من صديقهم، فقد أصغوا كثيراً إلى السير هنري مكماهون، وسلموه مفاتيح بلادهم، وناصية قرارهم، وقبلوا بأن يكتب لهم مصائرهم، ويحدد مستقبلهم، ويرسم حدود بلادهم، ويعرف حلفاءهم، وبين لهم أعداءهم، بينما كان في حقيقته يخطط لخدمة بلاده، وتحقيق أهداف حلفائه، فكان عند العرب كالذئب يرعى الغنم، أو كالقط يطهو لهم اللحم، فلا غنّم لهم نجت، ولا لحم لهم القط أبقى.

مازال العرب يحتظون برسائل مكماهون إلى الشريف حسين، بكل ما فيها من وعودٍ موثوقة، وأمانٍ معسولة، وأحلامٍ وردية، وقد خطها بأسلوبٍ جميل، وضمنها كلماتٍ رقيقة، ووشحها بعواطف ومشاعر شفافة، وكأن الذي يكتبها أخٌ لشقيقه، أو والدُ لولده، يعده بكل جميل، وينيه بكل صدق، ويبشره بمستقبلٍ واعدٍ، وأيامٍ جميلة، يتخلصون فيها من الاحتلال، وتستقل بلادهم وأوطانهم، وتنعم شعوبهم، وتنهض بلادهم.

ولكن النتيجة كانت عكس ما أمل العرب وتوقعوا، وأسوأ مما فكروا وظنوا، فقد تمزقت بلادهم، قوى الاستعمار حدودها بحسبٍ ولؤم، وزرعت فيها بؤر ثوراتٍ، وأسس صراعٍ، ورسخت لانشقاقاتٍ دينية ومذهبية، وهيأت لانقساماتٍ قومية وعرقية،

ثم شتت بلادنا بين الدول الاستعمارية، وأصبحت كل دولةً عربيةً، نهباً لاستعمارٍ جديدٍ، ومفترضٍ آخر، وإن ألبسوه ثوباً قشياً، وأطلقوا عليه اسمًا جديداً، فقالوا عنه إنه انتدابٌ للنهوض، ووصايةٌ للتطور، وفترةٌ حضانٌ لا أكثر، كي تنشأ المؤسسات، ويتصلّب عودُ البلاد، وتشتد عزائمها، لقوىٍ على تحمل المسؤوليات، والتصدي للشائد، ولكنهم كذبوا وخدعوا، وخانوا وغدروا، فكانوا استعماراً أشد وأنكى، وعدواً أسوأ وأخطر، دمروا بلادنا، وصادروا قرارنا، وسرقو خيراتنا، ونهبوا مقدراتنا، ثم اقطعوا جزءاً غالياً من أرضنا، ومنحوه بغير وجه حقٍ إلى عصاباتٍ يهودية، ومجموعاتٍ إرهابية، جاءت من أقاصي الأرض لتسوطن أرضنا، وتحتل بلادنا، وتزيف ماضينا، وتسرق صفحات تاريخنا.

اليوم يتكرر التاريخ من جديد، حاملاً معه أحد أحفاد هنري مكماهون، وواحداً من السلالة الاستعمارية الكولونالية الجديدة، ليقوم بذات الدور، ويؤدي ذات المهمة، ويطوف على ذات البلاد التي كان يطوف عليها جده من قبل، ويلتقي بأحفاد من التقاهم في مصر والجهاز، في محاولة منه ومن بلاده جديدة لتخدير العرب أو خداعهم، والضحك عليهم والاستخفاف بهم.

فها هو جون كيري ممثل عاصمة الاستعمار الغربي، ينتقل من عاصمةٍ عربيةٍ إلى أخرى، ويتنتقل بين القاهرة وعمان، والرياض وبيروت، وبغداد ورام الله، ويعلن من كل عاصمةٍ عربيةٍ، وفي حضرة قادتها وحكامها، أنه مع الحق العربي، ومع استعادة الفلسطينيين لحقوقهم، وأنه يؤيد تمكينهم من بناء دولتهم المستقلة، وتشكيل هويتهم الوطنية، ووضع أساس أنظمتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة، ويعلن أنه ضد الاعتداءات الإسرائيلية على المناطق الفلسطينية، وأنه يندد بأعمال القتل والاعتقال، والتخريب والمصادرة، وأنه يعارض بناء وتوسيع المستوطنات الإسرائيلية فوق الأرضي الفلسطينية، وعلى حساب حقوقه المشروعة، ويرى أنها تضر بعملية السلام، وتعرض مستقبل المنطقة إلى الخطر.

وفي المقابل يطالب جون كيري الدول العربية أن تقف إلى جانب الحلفاء الجدد، الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية، ومعها دولة الكيان الصهيوني، ضد إيران ومشروعها النووي، وأن يكونوا متفهمين لسياسة التشدد الغربي تجاهها، ولنبرة التهديد والجدية في مواجهتها، ذلك أنها تستهدف الاستقرار العالمي، وتضر بالتوازن الدولي، محذراً الدول العربية من مغبة الصمت، وسوء عاقبة القبول بالمشروع النووي الإيراني، أو الاستسلام له، فهو إن كان يهدد المصالح الغربية في العالم، فإنه يضر بالعرب، ويعرض أنفسهم واستقلالهم للخطر، واصفاً هذا الحلف المقدس بأنه حلف الأحرار، وتكتل الحرية، وأن من يتفق معه سيناله الخير، وسيقطف ثمار التحالف، ومن نأى بنفسه وامتنع عن التعاون، فإنه سيكون حليفاً للشر، وعوناً لقوى البغي والضلال، وسيطاله العقاب، وسيلحقه الجزاء.

ولا يستحيي جون كيري من مطالبة العرب بالوقوف إلى جانب إسرائيل، وتفهم مخاوفها، والقبول بسياساتها، وتأييد تهدياتها، والعمل على مساعدتها في مواجهة إيران، وتقديم كل ما يلزم لها في معركة المواجهة، ضماناً للنصر، وتأكيداً على منع انتقال خططها إلى أحد.

ويرى أن إسرائيل دولة تستشعر الخطر من إيران، وتختلف على أنها منها، ولها الحق في ذلك، إذ أنها تعتقد بأن قدراتها النووية تستهدفها قبل غيرها، وتهدد مصالحها، وتضرر أساس استقرار وعوامل الجذب لديها، ما يجعلها تفكر بمواجهتها، وتستصرخ دول العالم كله ليقفوا معها، ويساندوها في مواقفها، ويتعاونوا معها في ضرب واجهات القرارات النووية الإيرانية، ويتناسى الأخطار الإسرائيلية الحقيقة، وترسانتها النووية المهولة، وأسلحتها الفتاكه والمدمرة، وأنها دولة معندة وغاصبة، وأنها محتلة لأرضٍ عربية، وقد طردت أهلها، وشردت أبناءها، وقتلت خيرة رجالها.

إنها مهزلةٌ جديدة، وفصلٌ آخر من فصول التهم الغربي بالعرب، والاستخفاف الدولي بعقولنا ووعينا، ومحاولة للتذاكي علينا والتغري بنا، إذ يريدون استخدامنا كورقةٍ رابحةٍ في أيديهم، لمهمةٍ قذرةٍ هم يعرفونها ويخططون لها، ثم سيلقون بها في

سلة المهملات، كعادتهم مع أسلافنا، وكعهدهم القديم مع شعوبنا، الذين غدروا بهم وخانوهم، وكذبوا عليهم وتأمروا على مستقبلهم، فهل يصدق العرب وعودهم من جديد، ويأملوا بهم ويطمئنوا إليهم، فنعود لهم عبيداً، وفي أيديهم معاول، خدمةً لأهدافهم، وتنفيذاً لأغراضهم، وتحقيقاً لمنافعهم.

المصادر: